

الفصل الأول

جغرافية تونس

كان لموقع تونس في مفترق طرق البحر الأبيض المتوسط ولوضعها الجغرافي بصفة عامة أثر كبير فيما طرأ عليها من أحداث على ممر الأيام مما طبع تاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية بطابع خاص .

وتمتاز تونس باتساع سواحلها المنبسطة ووفرة مهورها وسلسلة جبالها التي لا تمنع اتصال الشمال بالجنوب مما جعل البلاد معرضة لكثير من الفتوحات كما شهد بذلك تاريخها القديم والحديث . ويتجاذب طبيعتها الجغرافية بصفة عامة طاملان أساسيان كان لهما الأثر الكبير في تكييف طقسها وإنتاجها الزراعي وهما : وجود الصحراء في جنوبها والبحر في شمالها وشرقها .

الطبيعة :

وتبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلومتر مربعاً ، وهي تمثل القسم الشرقي من المغرب العربي الواقع في شمال قارة أفريقية ، تحدها من الغرب الجزائر ، ومن الجنوب الشرقي ليبيا ومن الجنوب الغربي الصحراء . وترتبطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التي تعتبر العمود الفقري لأقطار المغرب العربي ، وقد جملت من هذه الأقطار وحدة جغرافية متسمة . وتمتد هذه الجبال في تونس من الجنوب الغربي بجوار تبسة إلى الشمال الشرقي حيث جبل زفوان وبوقرين ، ويزيد ارتفاعها بالقرب من حدود الجزائر على ١٥٠٠ متراً ، ثم يقل شيئاً فشيئاً صوب الشمال إلى أن يبلغ التلال الخصبية المحيطة بينزرت وماطر ويتخلل هذه السلسلة ممرات كثيرة تسهل الاتصال بين الشمال والجنوب . وتغطي هذه الجبال أشجار الفلين وصنوبر حلب ، وفيها مناخ الرصاص والحديد والفسفات

وتتخلل هذه الجبال سهول كثيرة مشهورة بانتاجها المحبوب .

أما الشواطئ في تونس فهي منخفضة على العموم ماعدا في الشمال ، ولا يعمدى عمق البحر ٢٠٠ مترا في هذه الشواطئ ، مما جعلها صالحة لصيد السمك . وبأزاء مدينة صفاقس تمتد جزر قرقنة التي اشتهر أهلها بصيد الأسفنج ، وفي جنوب خليج قابس توجد جزيرة جربة التي اشتهرت ببساتينها وواحاتها الجميلة . وتتصل سهول منطقة الساحل بسهول الشمال بواسطة مضائق زغوان وقرنبالية ، كما أن مضائق قابس تربطها بسهول شواطئ الجنوب ، وتحتل السهول ٨٦٪ تقريبا من مجموع مساحة القطر التونسي .

ولا يوجد في تونس من الأنهار الجديرة بهذا الاسم إلا نهر مجردة وفروعه ، وهو ينحدر من الغرب إلى الشرق صوب خليج تونس ؛ على أن مياهه تقل كثيرا زمن الصيف . أما نهر مليون فإنه عبارة عن نهر بسيط تنضب مياهه في الصيف في كثير من الأحيان . ويوجد كذلك منحدرات أشهرها زرود ومرج الليل ، وهي تفيض من غير موسم وتصب في سبخات أو تضيع في الفيافي .

ومناخ تونس على العموم دافئ معتدل . أما الأمطار فهي غير منتظمة إذ يختلف سقوطها من ناحية إلى أخرى ومن سنة إلى سنة ، وكذلك يختلف باختلاف ارتفاع الأرض وقربها من البحر أو من الصحراء ، مما جعل كل منطقة من المناطق التونسية مختصة بإنتاج معين . ويمكن تقسيم المناطق كما يأتي :

في شمال سلسلة جبال الأطلس وبخاصة على ضفاف نهر مجردة توجد أخصب الأراضي التونسية الصالحة لإنتاج الحبوب . وقد اشتهرت فيها الكاف وباجة وتبرسق وسليانة والفحص وسوق الاربعاء وسوق الخميس وطبرية وماطر ، وهي من أهم المرا كز الفلاحية بتونس .

وفي جنوب جبال الأطلس بمتد « إقليم المنبسطات » (La Région des Steppes) بين مدينة قفصة من الغرب وواحات الجريد من الجنوب والساحل التونسي من الشرق ، ولا تقطعه إلا تلال قليلة . ويفتقر هذه المنبسطات من الناحية الغربية مساحات شاسعة من الحلفاء ، وبها مزارع كبيرة وصراع شاسعة ؛ وتقل الأمطار في هذا الإقليم حتى تنقطع تماما في الجنوب ، وليس به من القرى

إلا القليل باستثناء مدينة القيروان .

وتمتاز منطقة الجريد ومنطقة نفاوة في الجنوب التونسي بإحاطتها الجميلة الفنية ووفرة مياهها .

وفي الشمال الشرقي تمتد شبه جزيرة بين خليج تونس وخليج الحمامات تسمى « دخلة المارين » وهي من أخصب الأراضي التونسية بما فيها من غابات الزيتون وأشجار البرتقال ، وتكثر فيها القرى الماهرة .

أما ما يمر عنه « بالساحل » فهي منطقة تبدأ من ناحية سوسة وتنتهي إلى ناحية صفاقس ، ويغطي هذه المنطقة غابات الزيتون منذ أقدم المصور .

الممر :

وتوجد في تونس مدن كثيرة وبخاصة في الشمال وعلى السواحل وفي الجنوب . وقد لب كثير منها دوراً هاماً في تاريخ تونس .

وأهم هذه المدن : تونس والقيروان وصفاقس وسوسة وبزرت وقابس والمهدية وتوزر ومساكن والمنستير والقلمنة الكبرى وماطر وباجة والكاف .

ومدينة تونس الواقعة على خليج تونس هي العاصمة الإدارية والثقافية والاقتصادية للمملكة التونسية . وقد لعبت أدواراً هامة في تاريخ البلاد ، وكان تاريخها قبل الفتح الإسلامي مجهولاً ؛ إذ أن العاصمة في ذلك الحين كانت مدينة قرطاجنة ، وبعد الفتح العربي اتخذ العرب من مدينة القيروان عاصمة لهم ، وبعد أن استولوا على مدينة قرطاجنة سنة ٦٩٨ م بدأت مدينة تونس تنافس القيروان حتى أصبحت عاصمة من العواصم الإسلامية التي ازدهرت فيها الحضارة العربية . ومنذ عهد الدولة الحفصية أصبحت قاعدة للمملكة التونسية ، وقد أخذت مدينة تونس شكلها الحالي ابتداء من القرن الرابع عشر م .

ومدينة صفاقس الواقعة في شمال خليج قابس هي عاصمة الجنوب التونسي الإدارية ، وتمتد أهم مراكز اقتصادي لقونس ، وقد أحاطت بها مزارع الزيتون الشاسعة منذ القدم ، وينتهي إليها خط حديدي أنشئ لنقل الفسفاط من قفصة إلى البحر .

ومدينة بنزرت الواقعة في الشمال على خليج بنزرت هي من الموانئ المشهورة في البحر الأبيض المتوسط منذ عهد قديم ، وكانت ممقلا من معاقل القرصنة المسلمين ؛ ولهذا توالى عليها غارات الإفريج في القرن السادس عشر ، ودمرها الفرنسيون بقنابلهم مرتين في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، ثم ازدهرت من جديد منذ أواخر القرن التاسع عشر ، إذ أصبحت من أهم القواعد الحربية في البحر الأبيض المتوسط .

ومدينة قابس هي عاصمة منطقة « الأعراض » ، وتحيط بها حدائق النخيل الشاسعة ، وهي في الوقت الحاضر مركز من مراكز القيادة العليا العسكرية الفرنسية لمنطقة الجنوب التونسي .

ومدينة توزر في الجنوب التونسي هي عاصمة « واحات الجنوب » ، وتحيط بها القرى المشتقة بين الواحات ، وقد اشتهرت بما فيها من عيون كثيرة توزع مياهها بين البساتين بطرق هندسية دقيقة التنظيم وضمها العالم المشهور ابن الشباط التوزري في القرن السادس الهجري ، ولا تزال معمولا بها حتى الآن ، وهي مدينة عتيقة ازدهرت فيها المدنية قرونًا متوالية منذ عهد الرومان .

وهناك مدينتان أثريتان أول نجمهما في المصور الأخيرة وهما : القيروان والمهدية أما القيروان فهي أول مدينة بناها العرب في المغرب وسط منطقة صحراوية بعيدة عن البحر ، وقد أنشأها عقبة بن نافع سنة ٥٥٠ هـ . وكانت عاصمة العرب قرونًا متوالية ، وتمتد اليوم أهم مدينة أثرية في المغرب لما اشتملت عليه من المساجد والبنى الأثرية الفنية التي ما تزال قائمة الذات .

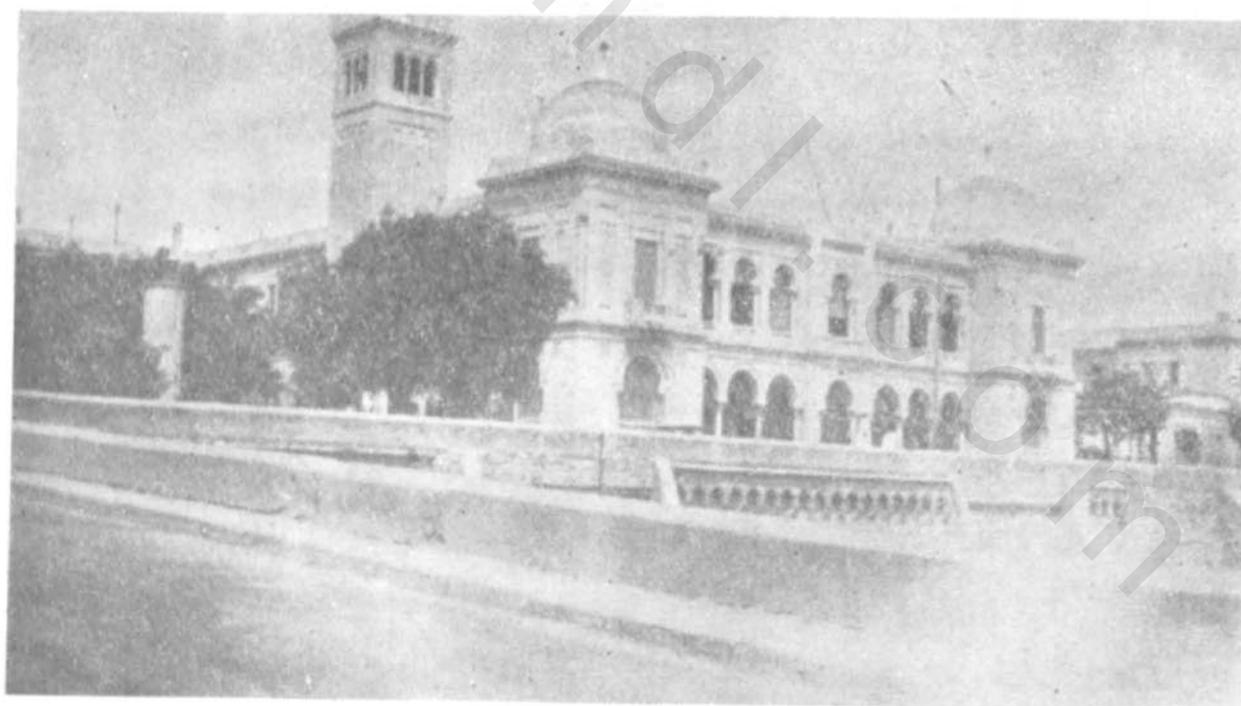
أما المهدية فهي من عواصم الساحل التونسي أسسها المهدي عبيد الله الشيبلي سنة ٩١٦ م وصارت منذ ذلك العهد قاعدة الخلافة الفاطمية ، ثم أصبحت فيما بعد قاعدة من قواعد القرصنة في البحر الأبيض المتوسط . وقد احتلها القوات المألفة من أهل جنوة وبيزة وصقلية سنة ١٠٦٧ م . ثم احتلها النورمان ثم الأسبان ، ولم تخلص من أيدي هؤلاء إلا في عهد الأتراك .

السطار :

يبلغ عدد سكان تونس بحسب إحصاء سنة ١٩٤٥ ١٧٠ ١٥٠ ر ٣٠ ز



منظر عام لمدينة تونس



المدرسة الصادقية

نسمة ومعظمهم من العرب المسلمين ، وتمد تونس من أكثر أقطار المغرب العربي استمرابا بعد هجرة بنى هلال إليها في القرن الحادى عشر م ، ولم يبق أثر للمنصر البربرى الأصلى ولا للأقرطاجنيين والرومان الذين احتلوا البلاد قرونا متوالية قبل العرب ، كما انمعى أثر الأتراك من تونس ، وقد تغلب المنصر العربى على كل هذه العناصر وابتلمها .

أما لغة السكان فى العربية ، وتعتبر اللهجة التونسية العامية من أقرب اللهجات للعربية الفصحى ، وقد اختفت اللهجات البربرية القديمة ولا تجد بقاياها اليوم إلا فى منطقة قفصة ومطاطة الجبلية والديورات وشنتى بأقصى الجنوب التونسى . ويدين جميع السكان العرب بالدين الإسلامى ويتبع معظمهم المذهب المالكى . وقد انتشرت الحياة الحضرية فى تونس منذ عهد قديم وهى فى تقدم مستمر ، ويبلغ عدد سكان المدن بالنسبة لمجموع السكان ١٨ ٪ ، وتكثر فى تونس الطبقة المتوسطة فى المدن والقرى ، إلا أن الفقر الذى عم طبقات الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية قد أضر بهذه الطبقة أكثر من غيرها ، وانتشرت الطبقة الفقيرة فى البوادمى وعددها يتزايد كل سنة .

ولا توجد القبائل الرحل إلا فى المنطقة الوسطى للقطر التونسى ، على أنهم لا يرحلون إلى مناطق الشمال إلا فى مواسم معينة وفى سنوات القحط والجماعة ، ولو اعتنت السلطة فى تونس بمسائل الرى لاستقرت القبائل نهائيا فى هذه المناطق الشاسعة .

ويوجد فى تونس أقلية من اليهود يبلغ عددها ٧٢ر٠٠٠ نسمة ، وقد استوطنوا تونس من أقدم العصور وخاصة بعد أن طردوا من الأندلس ، كما كانوا يلجأون إليها هربا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى أوروبا . فظلوا فى تونس يتمتمون بحرية كاملة فى القيام بشعائر دينهم والمشاركة فى التجارة والصناعات ، وتقلد بعضهم مناصب عالية فى الدولة التونسية . ويتكلم يهود تونس لهجة تونسية محرفة ولم عواندم الخاصة وتقاليدهم .

أما الجاليات الأوروبية فيبلغ تعدادها ٢٤٣ر٠٠٠ نسمة بحسب إحصاء سنة ١٩٤٥ وهى تعيش بالمدن فى أحياء خاصة وتتمتع برفاهية لا يتمتع بها السكان

المرب وذلك بسبب المساعدة التي تبذلها لهم السلطة الفرنسية لتمكينهم من الاستيلاء على خيرات البلاد واستغلالها لمصالحهم الخاصة .

المنتجات والمعادن :

وقد اشتهرت تونس منذ عهد قديم بزراعتها ، وكانت تسمى في عصر الرومان « مخازن رومة » لما كانت تنتج من الحبوب والزيوت والتمر ومختلف الفواكه . وبالرغم من ثروتها المدنية الكبيرة فهي قبل كل شيء بلاد زراعية ، ومعظم سكانها يعيشون من الزراعة بصورة مباشرة ، وتبلغ منتجات أرضها نصف تجارتها مع الخارج ، وكل الحركة الصناعية والتجارية ترتكز على حالة الزراعة وتتأثر بأزماتها .

وأكثر المنتجات الزراعية التونسية هي الحبوب ، وتزرع منها سنويا مساحة تبلغ ٥٩٠٠٠ هكتار^(١) بينما لا تتمدى المساحة المفروسة بأشجار الفواكه ٦٣٠٠٠ هكتار ، ويحتل القمح والشعير ٩٣ ٪ من مجموع المساحات المزروعة حبوبا ، ويبلغ متوسط انتاج القمح السنوي ٣٨٦٠٠٠ قنطار ويبلغ متوسط المساحة المزروعة سنويا ٨٠٠ هكتار ، أما ما يصدر منه سنويا فيتجاوز مليون ونصف مليون قنطار . ويبلغ متوسط انتاج الشعير سنويا ٤٠٠٠٠٠ قنطار ويبلغ متوسط الصادرات منه من خمسمائة ألف قنطار إلى مليون قنطار^(٢) .

ومن أهم محصولات البلاد الزيتون الذي يبلغ عدد أشجاره ٢٧ مليون شجرة ولا يزال في ازدياد ، وتأتي تونس في الدرجة الرابعة بعد اسبانيا وإيطاليا واليونان فيما تحتوي عليه من أشجار زيتون ، وهي الثالثة فيما تصدره إلى الخارج من الزيت ويبلغ ما تصدره من الزيت ٦٠٠٠٠ قنطار من متوسط انتاج سنوي قدره ٨٠٠٠٠٠ قنطار .

وقد اشتهرت تونس بصناعة الشاشية (الطربوش) والسجاد والخزف ، ونسج الحرير والصوف ، ونقش النحاس والفضة .

وأرض تونس غنية بمعادنها المختلفة ، وتمتد ثاني أقطار العالم المنتجة للفسفات ، كما يستخرج منها الحديد والرصاص والزنك والمنغنيز والنحاس والبروم واليوتاس وتعتمد تجارة تونس مع الخارج على تصدير القمح والزيت والفسفات

(١) إحصاء سنة ١٩٣٩ .

(٢) كل الأرقام المذكورة مأخوذة من متوسط خمس سنوات